بعضهم بعضاً قائلين: لقد صُرع الشتاء. وها هو هودج الربيع يطلّ علينا من وراء الأفق الازرق.

ولكنّ آذار كان يضحك منّا هذه المرّة لا لنا. وكان، ونحن في غفلة عمّا نواه بنا، يتفقّد مخازن وقودنا حتى إذا اطمأنّ إلى قرب نفادها انقضّ علينا بخيله ورجله. وخيله كانت بروقاً ورعوداً وصواعق. وكانت رجله شآبيب استعارها من البحر فلَهث عليها من لهاثه القارس وأنزلها جحافل بيضاء جرّارة لا تبصر العين لها أوّلاً ولا آخراً. وهي في نزولها ونزالها لا تعرف التردّد ولا الوجوم ولا الإحجام. بل تتسابق إلى الميدان تسابق العشّاق إلى العناق. وهي آنًا بَرَدٌ ينطلق انطلاق الرصاص، وآناً سويقٌ أبيض يماشي الريح في كلّ جانب، وآونة رقاع متفاوتة الحجم تدور في رقصة متماهلة، ولا تنفكّ ترتفع قيراطاً ثمّ تهبط ذراعاً إلى أن تبلغ الأرض فتستقرّ وتستكنّ. وما هي إلّا ساعة أو أقلّ حتى شابت القرية ـ مساكنها وجنائنها وترابها. فهي والجبال من حواليها قطعة من عالم مسحور وقد ران عليه سبات ولا سبات أهل الكهف.

إنّها لَسَكتة رهيبة تلك التي بسطتها كفّ آذار علينا وعلى جبالنا. فلا ما يزحف أو يدبّ، ولا ما يمشي على